

## "أراض للتنزه" لعوز شيلح: الغياب بكامل أنيه

استقالة منها ولا إقالة! .

يحيل الخروجان، من اللغة في حالة شيلح، ومن الدين والاسم في حالة فعنونو، إلى ذات الكشف العميق عن حبكة الهوية/ المكيدة التي دبرت بليل، والتي هدفت لإنزال الزمن التوراتي على جغرافيا فلسطين المعاصرة، ويحيلان إلى بصيرة نافذة للشخصين لا يمكن من دونها فهم الخلطة السحرية السوداء التي نجحوا في فك طلسمها من داخلها.

لغة عبرية، وزمن توراتي، ومكان فلسطيني، وحبكة معقدة؟ إذن نحن نتحدث هنا عن رواية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وعن انشباك السرد بالوجود في أعقد تجلياته وأوضحها في آن. من أروع ما قيل عن ورطة الذات مع الأمكنة بالنسبة لي، ما لمع به حسين البرغوثي من عبارة في ضوئه الأزرق: "يا الله كم

(\*) وأنا أقرأ عوز شيلح، كنت أفكر في مردخاي فعنونو، ليس فقط لأنني مسكون بقصة هذا الإنسان، وإنما أيضا لأن خروج عوز شيلح صاحب "أراض للتنزه" من اللغة العبرية كلغة إبداع، ينتمي إلى التجربة ذاتها. لقد أدرك شيلح، وهذا ما تدل عليه روح نصه، أن عليه أن يخلع لغته لدخول "المعبد" الجمالي، أما فعنونو الخارج من معبد الأمن النووي، فقرر الانتفاض على اختطاف الصهيونية ليهوديته المغربية بالخروج من الدين، كما خرج من اسمه اليهودي، مردخاي ليصبح جون، لكن محاولة الإفلات من اللعنة باءت على الرغم من ذلك بالفشل. فكأن الصهيونية قدر اليهودي، مثلها مثل القذافي للشعب الليبي! لا

\* كاتب فلسطيني ومحرر مسؤول في المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية-مدار. هذا النص مداخلة في ندوة نظمت في مركز "مدار" في رام الله بتاريخ ٢٠١١/٧/٣، حول رواية عوز شيلح: "أراض للتنزه: رواية في شذرات" الصادرة عن المركز، ترجمة د. عبد الرحيم الشيخ.

في "الإسرائيليات" أيضا سماح بالظهور للآخر، لكنه ظهور في الهامش على نحو محدود ومدروس، ومقرون بالتعبير الركيك والمتلثم عن الذات. بالمقابل يدفع شيلح بالضحية إلى صدارة المتن بلا أي تحفظ، ويعيد تركيب اللغو الأصلي، من ذات مكونات اللغو المستجد الذي يتولى فكه: الأسماء والأشجار والحجارة والشخوص. يحاول إيقاظ الغياب بكامل تفاصيله وأنيبه، حتى يتسبب هذا الغياب الحضور ويمنحه معناه وتراجيديته الساخرة.

وتاريخها وموقعها من السرد .

وهناك نقد إسرائيلي نبع من ترف اطمئنان وجودي يشيعه ترسخ الدولة، فيما ينطلق شيلح من قلق أخلاقي عميق، والفرق كبير بين نقد يريد الوصول إلى عالمية على مقياس المركز الغربي المهيم، وبين آخر سقفه إنساني بلا حدود .

في "الإسرائيليات" أيضا سماح بالظهور للآخر، لكنه ظهور في الهامش على نحو محدود ومدروس، ومقرون بالتعبير الركيك والمتلثم عن الذات . بالمقابل يدفع شيلح بالضحية إلى صدارة المتن بلا أي تحفظ، ويعيد تركيب اللغو الأصلي، من ذات مكونات اللغو المستجد الذي يتولى فكه: الأسماء والأشجار والحجارة والشخوص . يحاول إيقاظ الغياب بكامل تفاصيله وأنيبه، حتى يتسبب هذا الغياب الحضور ويمنحه معناه وتراجيديته الساخرة .

وهناك في المحصلة الإسرائيلية تبهيت لخطية العام ٤٨ يساريا، بتعميق "الخط الأخضر" في الوعي رغم التآمر على محوه على الأرض، في حيلة هوياتية يفرد لها يهودا شنهاف كتابا كاملا (سيصدر عن مدار قريبا)، لكن شيلح لا يغادر الخطية الأولى إلا ليعود إليها، ويفسر الأشياء كامتداد لها . لا يوجد زمن إسرائيلي جميل عنده، في شذرات الخطايا المتناسلة .

في الأدب قد تكون الخاتمتان الفانتازية حلا هروبيا أيضا، ولكن الفانتازيا ليست بريئة تماما، فهناك فرق بين واقع كابوسي ينتهي بكابوس، وآخر ينتهي بحلم لا مبال . هناك فرق بين سرد يحد المكان، يفصله عن تاريخه، وبين آخر يستنطق المكان عن تاريخ غير محايد، كما عند شيلح .

يبدو المكان كمصيدة" ، وليت حسين عاش ليقرأ درويش الذي أحب، يحاور روح نصه ببصيرة تليق، عندما كتب في "أثر الفراشة" : "الزمان هو المصيدة" ، هذا حديث كبار عن أمكنة وأزمنة عادية وعن أزمة وجودية موجهة معها، فكيف الحال مع ما اكتشفه شيلح من وقوع جائر في مصيدة أمكنة وأزمنة طرد منها ناسها ليحل مكانهم بجسده وروحه وروائحه .

لا جديد فيما يعترفه إسرائيلي من جلد لضحية تتحسس كل يوم موضع السياط على جسدها، وعلى تضاريس روحها، لكن هذا لا ينفي ما يثيره الأمر من انتشاء وعزاء، وما يحرضه من معرفة لا غنى عنها كزاد لرحلة لا تزال شاقة وطويلة .

الخاص في عمل شيلح، إضافة إلى كونه عملا أدبيا، والاعترافات في الأدب أصعب وأقسى، ليس التشخيص لما يسميه على لسان أحد أبطاله "كذبة وجودنا الكبرى" ، ولا الاعتراف الكامل والمباشر غير المناور بما حدث، ولكن سياق هذا الاعتراف وسقفه وتوظيفه ومغزاه وأدواته .

إسرائيليون كثيرون سبق أن تجاوزوا الرواية/ الأسطورة المؤسسة، في التأريخ الجديد وعلم الاجتماع والآثار وعلوم إنسانية أخرى، ولكن سياق التجاوز والتفكيك كان جزئيا، وفي أحيان كثيرة كان موظفا في سياق سياسي يخدم الرواية المهيمنة، وكثيرا ما تم على المحركات الحقيقية التراجع، في توقيت طاعن في الظهر، عن "الاعترافات" ، كما في حال بيني موريس مثلاً .

وهناك اعترافات لغسل الضمير من دنس الماضي، لكن من دون دفع فاتورة المستقبل، هذا النوع من الرياء يقود إلى خاتمت مفتوحة على استئناف النهب واقعا ومجازا لإرث الضحية

من المهم جدا التركيز في هذا السياق على أن الرواية الفلسطينية تركز على التذكر، أي أنها تحرص على تربية أبنائها على تذكر ما حدث، فيما تركز الرواية الصهيونية، وتعي كشرط لوجودها، على النسيان، ليس نسيان الجلاذ لجريمته أو كبتها، إنما نسيان الضحية لحصتها من الحكاية، وبهذا راهنوا على أجيال فلسطينية تنسى، ومن هنا فقط يمكن فهم مطلب بنيامين نتنياهو السوربالي العصابي بالاعتراف بيهودية الدولة، كرد على عدم تحقق النسيان، يريدون من الضحية أن تشطب مكانها من ذاكرتها، وذاكرتها عن مكانها، بمعنى أن تنسحب من ممكنها الزمني، وأن تنتحر.

العصابي بالاعتراف بيهودية الدولة، كرد على عدم تحقق النسيان، يريدون من الضحية أن تشطب مكانها من ذاكرتها، وذاكرتها عن مكانها، بمعنى أن تنسحب من ممكنها الزمني، يعني أن تنتحر.

في النهاية لا يتعلق الأمر فقط بما يحدث في إسرائيل بمقدار ما يتعلق بجدارة الفلسطينيين، إذ لا يمكن عزل هذا التجلي الأدبي النادر، وغيره، عن فعل انتفاضة العام ٨٧ تحديدا، التي دفعت الوعي الإسرائيلي إلى مربعه الأول، لقد انكشف السكان الأصليون الخاضعون للاحتلال، المنظور لهم كتجمع سكاني، عن شعب صاحب قضية، يعني صاحب رواية. كانت تلك رضة للوعي العنصري المطمئن لم تتوقف تداعياتها سياسة وسردا إلى اليوم.

كان فعنونو في المفاعل النووي، رمز فكرة القلعة، فسرب وثائق تحكي الكثير، أما عوز فسرب لنا وثائق لا تقل أهمية عن مفاعل غامض لا يقل خطورة يقبع تحت الفعل الثقافي الإسرائيلي، لقد كان شيلح هناك ورأى كل شيء، وخرج لبروي. . فشكراله.

يقلب شيلح المؤلف إسرئيليا، وينقلب عليه، وهذا هو الأخطر في تجربته، إذ لا يمكن برأيي كتابة رواية إسرئيلية قومية إلا كرواية محو، يبقى ثقل المحو فيها أوضح من ممكنات الإضافة، كونها محكومة بافتعال مكان وبتز زمان وطرد شخوص وارتجال لغة، رواية كهذه لا غنى لها عن لاصق القوة بمعانيها الفيزيائية والمعنوية.

رواية كهذه ليست قائمة بذاتها، ليست قائمة بقدرتها على التذكر مثلنا (كجماعة قومية فلسطينية)، إنما بقدرتها إكراهنا على النسيان. أو استعارة تذكر آخر من خارج سياق التجربة، الحكاية النازية مثلا. مهمتنا أسهل، ربما، فهي إكراههم على الاعتراف بنا، فيما يريدون منا أن ننسى أنفسنا.

من المهم جدا التركيز في هذا السياق على أن الرواية الفلسطينية تركز على التذكر، أي أنها تحرص على تربية أبنائها على تذكر ما حدث، فيما تركز الرواية الصهيونية، وتعي كشرط لوجودها، على النسيان، ليس نسيان الجلاذ لجريمته أو كبتها، إنما نسيان الضحية لحصتها من الحكاية، وبهذا راهنوا على أجيال فلسطينية تنسى، ومن هنا فقط يمكن فهم مطلب بنيامين نتنياهو السوربالي